الإمامة والعصمة

في آية العهد

سيد جاسم الموسوي

بسم الله الرحمن الرحیم

كلمة المعهد

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين
وصحبه المنتجبين

إنّ الخلاف والاختلاف والتباين سمات رافقت المجتمعات البشريّة منذ وجودها على وجه الأرض، ولم تأتِ بعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام وإنزال الكتب والرسالات إلّا للحدّ من هذه الخلافات بين الأُمم وبيان ما اختلفوا فيه، إلّا أنّه رغم ذلك فقد اختلف أصحاب الديانات والكتب السماويّة أنفسهم من بعد ما جاءهم العلم.[1]

ولم تكن الأُمّة الإسلاميّة خارجةً عن هذه السُنّة التاريخيّة؛ فكان الخلاف ينشب بين أبنائها بين الفينة والأُخرى.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ (آل عمران: ١٩).

وقد اقترنت تلك الخلافات في حُقبٍ من التاريخ الإسلامي بتبنّي البعض أفكاراً متطرّفةً وشاذّةً لا تعود على المسلمين بشيءٍ سوى تعميق الخلاف أكثر فأكثر، وتأجيج النزاعات المذهبيّة والطائفيّة وتشديدها بينهم.

و هناك بعض الفِرَق في أمّتنا الإسلاميّة جنّدوا كلَّ طاقاتهم لزرع الحقد والعداوة والكراهية في قلوب الأجيال عبر مختلف طرق التبليغ؛ ابتداءً بالخطب والمحاضرات، ونشر الكرّاسات والكتب والمجلّات، ثمّ مع مرور الزمان و تطوّر وسائل الإعلام قاموا أيضاً بتسخير وسائل الإعلام المسموعة و المرئية، ومواقع الإنترنيت، وغيرها. بل عمدوا إلى إدخال كتب العقائد الخلافيّة في المناهج الدراسيّة، وإنشاء المعاهد والجامعات لتربية أصحاب الفكر المتشدّد والمتطرّف، حتّى تخرّجت منها جماعةٌ مِن الكتّاب لم ترقب لأحدٍ ذمّةً ولم تراعِ حرمة؛ وقد اتّسمت كتاباتُهم بشكلٍ عامّ باللاموضوعيّة، والشدّة، والتهجّم السافر على الآخرين، وعدم الإنصاف، والابتعاد عن منهج البحث العلمي في المسائل الخلافيّة، ومن المعلوم أنّ أهمّ العناصر التي يجب الالتزام بها من قِبَل الباحث في الفكر العقائدي المقارَن، هي مراعاة الأمانة العلميّة في النقل والضبط والبيان، والورع، وأداء الحقّ واتّباعه،

كما قال سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (الزمر: ١٨).

وينبغي النظر إلى المسائل الاتّفاقية بعين الاعتبار والأهمّية، فإنّ نقاط الاشتراك والالتقاء في الأُصول والفروع لدى المسلمين هي أكثر من نقاط الاختلاف والافتراق، وهذه الأُمور المشتركة بمثابة القاعدة الثابتة التي ينطلق المرء منها في المعرفة الدينيّة الإسلاميّة.

كما لابدّ من الإنصاف والتزام الموضوعيّة في التعامل مع المسائل الخلافيّة الموجودة بين أئمّة المذاهب الإسلاميّة، فالخلاف مسألةٌ طبيعيّة، وهو ميزة البحث الفكريّ، بل لا يخلو منه حتّى أصحاب المذهب الواحد؛ سواءً في الفقه أو الاعتقادات.

كما أنّ من الظلم والإجحاف الاعتمادَ على المصادر الثانوية وغير المعتمدة لدى الطرف الآخر فى بيان مذهبه أو الردّ عليه، أو الاحتجاج بالقضايا الخلافيّة غير المسلَّم بها عنده، بل لابدّ من الرجوع إلى أُمّهات المصادر المعتمدة لديه والاحتجاج عليه وفق متبنّياته.

ويجدر بالباحث الإسلاميّ أن يكون هدفه من وراء طرح كلّ مسألةٍ علميّةٍ هو طلب الحقّ والحقيقة، لا أن يرِد البحث وهو محمّلٌ بالقَناعات والأحكام المسبَقة المسلّمة لديه من دون أن يكون له الاستعداد لرفع اليد عنها؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤).

وقد بدأ معهد الحجّ والزياره مرحلةً جديدةً في باب الحوار والسؤال والردّ على الشبهات، متجنِّباً الإثارات المذمومة و حريصاً على استثارة العقول المفكّرة والنفوس الطالبة للحقّ، لتنفتح على الحقائق التى تقدّمها مدرسة أهل البيت عليهم السلام الرساليّة للعالم أجمع.

ونحن في هذه الدراسات نتوخّى أن نسير على جادّة الصواب و الإنصاف، وعدم الخروج والانحراف عنها، كما نتوخّى اعتماد الأدلّة النقليّة المعتبرة والمستندة إلى الكتاب والسنّة والتي يقبلها جميع علماء المسلمين بالإضافة إلى الأدلّة العقليّة المحكمة. وهذا هو الحجر الأساس في البحث و الاستدلال في هذا المضمار، ولابدّ أن نشير إلى أنّ هذه المجموعة من البحوث قد أُعدّت فى لجنةٍ خاصّةٍ من مجموعة من الباحثين الأفاضل، ونحن إذ نتقدّم بالشكر الجزيل لكلّ هولاء ونقدّم هذه السلسلة

القيّمة من الدراسات إلى القارئ الكريم، نرجو أن تضيء طريق الباحثين عن الحقائق، وأن تكون خطوةً في توحيد الأمّة الإسلاميّة.

إنه ولي التوفيق

معهد الحج والزيارة

قسم الكلام و المعارف

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

أهمية البحث وضرورته[2]

التكامل فطرة جُبل عليها الإنسان منذ أن وُجد على ظهر هذا الكوكب، والسعادة غايته التي يسعى إليها، وهو دائب السعي وراء ما يحقّق له الهدف ويوصله إلى غايته المنشودة.

والغاية القصوى من الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر هي القرب من الحق تعالى والوصول إليه، لأنّه الكمال المطلق، فهذا هو أسمى هدف خُلق الإنسان من أجله ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[3]، فهو تعالى غاية ليس بعدها غاية، وهدف ليس وراءه أيّ هدف، إلّا أنّ الإنسان عاجز عن الوصول بنفسه إلى

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) المقال مستوحى من مجموعة مؤلفات آية الله السيد كمال الحيدري بعد التهذيب والإضافة.

(٣) النجم: ٤٢.

الكمال المنشود، فهو محتاج في هذه النشأة إلى مَن يأخذ بيده ليدلّه على غايته المطلوبة وهدفه الأسمى الذي يسعى إليه.

من هنا نشأت الحاجة إلى الدين، لأنّه السبيل الوحيد لوصول الناس إلى غايتهم، فكان من لطف الله سبحانه أن أرسل إليهم ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(١)، هداة إلى الله سبحانه، وأدلاّء على مرضاته، ولئلاّ يقول أحد: ﴿رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾(٢)، وهكذا شُرّعت الرسالات تَترْىٰ على الناس، كلّما استكملت رسالة أهدافها أعقبتها أُخرى أوسع منها وأشمل لتلبية حاجات الأمم ومتطلّباتها.

والملاحظ من خلال مطالعة الكتاب العزيز والسنّة الشريفة أنّ الرسل لم يكونوا في مرتبة واحدة، بل إنّ لكلّ واحد منهم خصائصه الذاتية والرسالية، كما أنّهم ليسوا صنفاً واحداً، ولا هم في مرتبة واحدة؛ فهناك أنبياء ورسل، وقد تجتمع النبوّة والرسالة في شخص واحد كما تميّز أولو العزم من الرسل بمميّزات خاصّة، بل نجد أولي العزم أنفسهم يختلفون في مراتبهم وتتفاوت درجاتهم، وقد اختصّ الله بعضهم بالإمامة كإبراهيمعليه السلام كما سيأتي، ووهبه إسحاق ويعقوبعليهما السلام، حيث قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ

(١) النساء: ١٦٥.

(٢) طه: ١٣٤.

إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[١]. وهكذا يصبح بحث (الإمامة) من أهمّ بحوث الفكر الإسلامي على المستويين العقيدي والتشريعي، وهو بحث متشعّب الجوانب متعدّد الأبعاد، حيث نحاول تسليط الضوء على بعضها بمقدار ما يرتبط ببحث العصمة، ونتناول في هذا القسم بحثها القرآني من خلال إمامة نبيّ الله إبراهيم عليه السلام التي نصّ عليها الكتاب العزيز، وما تفيده مفردات الآية المباركة من مفاهيم قرآنية تمّت للعصمة بأوثق صلةٍ.

فوائد البحث وآثاره

أهم النتائج التي نرومها من وراء هذه الدراسة هي الكشف عن تأكيد القرآن الكريم على أنّ الإمامة هي عهد الله تعالى الذي لا يناله الظالم، وأنّ الصبر واليقين شرطان أساسيان للإمام، وأنّ اليقين لا يحصل إلّا برؤية الملكوت، وأنّ رؤية الملكوت مشروطة بالطهارة، وهي العصمة.

العهد في اللغة والاصطلاح

أصل العهد الحفاظ، ومنه اشتقت معانيه، كالعهد بمعنى الميثاق واليمين والوصية واللقاء والمنزل ونحو ذلك، قال الجوهري: العهد: الأمان، واليمين، والموثق، والذمة، والحفاظ،

---

(١) الانبياء: ٧٢ و ٧٣.

والوصية، وقد عهدت إليه، أي أوصيته، ومنه اشتق العهد الذي يكتب للولاة[١].

وقد استعملت الكلمة بهذه المعاني في القرآن الكريم والسنة الشريفة، فقد قال الزبيدي: العهد: الوصية والأمر، قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾[٢]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾[٣]، وقال البيضاوي: أي أمرناهما، لكون التوصية بطريق الأمر، وقال شيخنا: وجعل بعضهم العهد بمعنى الموثق، إلّا إذا عُدّي بإلى، فهو حينئذ بمعنى الوصية، قلت: وفي حديث علي كرم الله وجهه: «عهد إليّ النبي الأمي (صلى الله عليه وسلم)»، أي أوصى، والعهد: التقدم إلى المرء في الشيء، والعهد الموثق، واليمين يحل بها الرجل[٤].

عهد الله تعالى

إنّ النبوة والإمامة الإلهية هما عهدُ الله تعالى كما نطق بذلك الكتاب المجيد: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٥]، إلا أنّ السؤال المهم هنا هو: هل هما مقامان إلهيان أم مقام واحد؟

من الملاحظ بحسب ما يفيده التدبر في الآية الكريمة الآنفة

(١) الصحاح، الجوهري، ج٢، ص٥١٥، مادة (عهد).

(٢) يس: ٦٠.

(٣) البقرة: ١٢٥.

(٤) تاج العروس، ج٥، صص١٤٤ و١٤٥، مادة (عهد).

(٥) البقرة: ١٢٤.

[البقرة: ١٢٤] أنّهما مقامان إلهيان، إذ إنّ إبراهيمعليه السلام لم يبلغ مقام الإمامة إلّا في أواخر حياته، وهذا يعني أنّ الإمامة متأخّرة عن النبوّة والرسالة وغيرهما من المقامات السامية التي بلغها خليل الرحمنعليه السلام، وأنّها مقام يختلف عن النبوّة والرسالة، ويدلّ على ذلك شواهد جمّة، منها طلب الإمامة للذرّية، فمن الواضح أنّ حصول إبراهيمعليه السلام على الذرّية كان في كبره وشيخوخته، كما حكى عنه قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾[1]، وحكى عن زوجة إبراهيمعليه السلام: ﴿**قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾[2]، وتفيد أحاديث بشارته بالولد في القرآن الكريم أنّه كان نبيّاً مرسلاً تتنزّل عليه الملائكة آنذاك.

ونجد إبراهيم الخليلعليه السلام في آية الإمامة يطلبها لذريته، مع أنّه لا يصحّ مثل هذا الطلب إلّا لمن كان لديه ذريّة، أمّا من كان آيساً من الولد، ويجيب مبشّريه به بالقول: ﴿**أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِي الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ**﴾[3]، فمثل هذا الطلب يعتبر منه أمراً غير صحيح؛ إذ لا يُعقل صدوره منه مع ما يحظى به من مقام النبوّة والرسالة، فهذا يدلّنا بوضوح على أنّ مقام الإمامة إنّما

---

(١) ابراهيم: ٣٩.

(٢) هود: ٧٢.

(٣) الحجر: ٥٤.

انتهى إليه في أخريات أيّام حياته، كما يدلّنا ـ بالتبع ـ على اختلاف مقامَي النبوّة والإمامة.

ومنها أنّ إبراهيم عليه السلام لم ينل مقام الإمامة السامي إلّا بعد الابتلاء والامتحان كما هو صريح قوله تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ**﴾، ومن جملة ما ابتُلي به في حياته ذبح ولده، فقد قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ**﴾[١].

ومن الواضح أنّ حادثة الذبح كانت أيّام شيخوخته وكبره عليه السلام أي بعد نبوّته، وهذا يعني أنّ النبوّة كانت قبل الإمامة، وأنّهما مقامان مختلفان.

ومنها الأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، ففي الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل، قال: «**وقد كان إبراهيم نبياً وليس بإمامٍ، حتّى قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فقال الله: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، من عبدَ صنماً أو وثناً لا يكون إماماً**»[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً، قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً، وإنّ الله اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه**

(١) الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٦.

(٢) الكافي، ج١، ص١٧٥، ح١، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام.

رسولاً، وإنّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، وإنّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾، فمن عظمها في عين إبراهيم ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، قال: لا يكون السفيه إمام التقيّ»[١].

فمن خلال هذه الشواهد يتّضح لنا أنّ الإمامة مقام يختلف عن مقام النبوّة والرسالة، بل هي أسمى منهما وأرفع، وأنّ إبراهيمعليه السلام بلغها أيّام شيخوخته، بعد أن خرج من جميع ما ابتلاه الله تعالى به صابراً مسلّماً[٢].

استمرار العهد

خاتمية النبوات والرسالات السماوية بالنبي الرسول الخاتمصلى الله عليه وآله هي من ضروريات الإسلام كما نطق بذلك الكتاب الكريم، حيث قال تعالى: **﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾**[٣].

كما نصّت على ذلك الروايات الطاهرة المروية عن أئمة أهل البيتعليهم السلام، فعن بريد، عن أبي جعفر وأبي عبد اللهعليه السلام في قوله عزّ وجلّ: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾**[٤]، قالا:

---

(١) الكافي، ج١، ص١٧٥، ح٢.

(٢) تفسير الميزان، ج١، ص٢٦٧.

(٣) الاحزاب: ٤٠.

(٤) الحج: ٥٢.

«لقد ختم الله بكتابكم الكتب، وختم بنبيكم الأنبياء»[١].

وعن أيوب بن الحر، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **«إنّ الله عزّ ذكره ختم بنبيكم النبيين فلا نبي بعده أبداً، وختم بكتابكم الكتب فلا كتاب بعده أبداً، وأنزل فيه تبيان كلّ شيءٍ وخلقكم وخلق السماوات والأرض ونبأ ما قبلكم وفصل ما بينكم وخبر ما بعدكم وأمر الجنة والنار وما أنتم صائرون إليه»**[٢]، إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة في المورد.

لكن هل انقطعت الرابطة والسفارة بين السماء والأرض بختم النبوات والرسالات السماوية؟ من البديهي أنّ الوحي قد انقطع بختم النبوات والرسالات السماوية، لكنّ ذلك لا يعني بالضرورة انقطاع العلاقة بين السماء والأرض، بل من الملاحظ أنّ إمامة إبراهيم عليه السلام ـ وبغضّ النظر عن جميع معانيها ـ لم تتوقّف عنده، بل استمرّت في عقبه وذريّته من بعده، وهي باقية إلى يوم القيامة، ويدل على ذلك أمور:

الأوّل: دعاؤه عليه السلام عند منحه هذا المقام وطلبه لذريّته، فإنّ جواب الحقّ سبحانه له لم يكن بنفي ذلك نفياً قاطعاً، بل بأنّه (عهد)، وعهد الله تعالى لا ينال الظالمين، كما لم يخصّص (هذا المقام) لا في السؤال ولا في جوابه بالذريّة الصلبيّين وحدهم، بل

(١) الكافي، ج١، ص١٧٧، ح٤، باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدث.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٩، ح٣، باب في أن الأئمة بمن يشبهون ممن مضى.

هو شامل لجميع ذريّته، شريطة أن لا يكون الفرد ظالماً لنفسه.

وبالفعل، فقد جعل الله تعالى من ذريّته أئمّة؛ قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾(١).

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢).

وقد ذهب جمع من المفسّرين إلى أنّ الكلمة الباقية في عقب إبراهيم عليه السلام هي كلمة التوحيد، التي برّأته ممّا يعبد قومه، وتوجّهه نحو الذي فطره هو عين معنى كلمة التوحيد (لا إله إلّا الله)، وأنّ المراد من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني أن يرجع المشرك منهم بدعوة الموحّد إلى الله سبحانه(٣).

إذن، جعل الله تعالى التوحيد باقياً في ذريّة إبراهيم عليه السلام وعقبه، ولا تخلو ذريّته من الموحّدين، وسيأتي أنّ جميع المعاصي نوع ومرتبة من مراتب الشرك بالله تعالى.

فالتوحيد الذي جعله الله تعالى باقياً في عقب إبراهيم لا بدّ

---

(١) الانبياء: ٧٢ و ٧٣.

(٢) الزخرف: ٢٦و ٢٨.

(٣) التبيان، الشيخ الطوسي، ج٩، ص١٩٣؛ الكشّاف، الزمخشري، ج٤، ص٢٤٦؛ تفسير الرازي، ج٢٧، ص٢٠٨؛ تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، ج١٨، ص٩٦.

وأن يكون التوحيد الحقيقي الذي لا يشوبه شيء من الشرك أبداً، ليستحقّ الإشادة به في القرآن الكريم، وإلّا أفيمكن أن يريد به التوحيد الذي وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُون﴾[1].

أضف إلى ذلك مقابلته بتوحيد إبراهيمعليه السلام ، وهو بلا شكّ توحيد حقيقي لم يخالطه أدنى شرك بالله العظيم، وهذا يعني أنّ الباقي في الأعقاب والذريّة هو ما كان يتمتّع به الخليلعليه السلام .

لكن يا تُرى من كان يتحلّى بمثل هذا التوحيد الحقيقي علماً وعملاً، ومن كان يحمل بين جوانحه ما يحمله شيخ الموحّدين، الذي ﴿قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]؟ لا شكّ في أنّ هذا الشخص هو من ناله عهد الله تعالى من ذريّة ابراهيمعليه السلام ، حينما ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، ومن هنا يتّضح بقاء الإمامة التي جعلها الله تعالى لخليله إبراهيم ببقاء تلكم الكلمة المباركة في عقبه وذريّته إلى الأبد.

الثالث: قوله تعالى ـ حكاية عن دعاء إبراهيمعليه السلام : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾[3]، وهذه الآية المباركة بمعنى الآية المتقدّمة، فقد ذكروا في تفسيرها أنّها دعاء في أن يبعث الله تعالى

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) البقرة: ١٣١.

(٣) الشعراء: ٨٤.

في الآخرين مَن يقوم بدعوته، ويدعو الناس إلى ملّته وهي التوحيد[١]، ﴿**قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[٢].

وقد استجاب الله تعالى دعاء نبيّه، فقال سبحانه: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً**﴾[٣].

الرابع: النصوص الكثيرة المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فيما يتعلّق ببقاء الإمامة في عقب إبراهيم عليه السلام، مفسّرة للآيات المتقدّمة في ذلك؛ ففي الصحيح عن أبي حمزة الثمالي، عن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، أنّه قال: «**فينا نزلت هذه ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾، والإمامة في عقب الحسين بن عليّ ابن أبي طالب عليهم السلام إلى يوم القيامة**»[٤].

وعن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**﴾: «**إنّها في الحسين عليه السلام، تنتقل من ولد الى ولد، ولا ترجع إلى أخ ولا عمّ**»[٥].

---

(١) التبيان، ج٨، ص٣٤؛ تفسير الفخر الرازي، ج٢٤، ص١٤٧؛ تفسير الميزان، ج١٥، ص٢٨٥.

(٢) آل عمران: ٩٥.

(٣) مريم: ٤٩ و ٥٠.

(٤) كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ص٣٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٣١.

وعن أبي بصير أيضاً، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾؟ قال: «**هي الإمامة جعلها الله عزّ وجلّ في عقب الحسين عليه السلام باقية إلى يوم القيامة**»[1].

وعن المفضل بن عمر، أنّه سأل الإمام الصادق عليه السلام: يابن رسول الله فأخبرني عن قول الله عزّوجلّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾؟ قال: «**يعني بذلك الإمامة جعلها الله في عقب الحسين عليه السلام إلى يوم القيامة**»[2].

وصفوة القول: إنّ الإمامة لم تقف عند إبراهيم عليه السلام ، بل هي جارية مستمرّة في عقبه وذريّته إلى يوم القيامة، وذلك بصريح الآيات والروايات المتقدّمة.

شروط العهد

المتدبر في الآيات الكريمة يجد بوضوحٍ تامٍّ أنّها قد نطقت بجملة من الأمور كشروط أساسية في بلوغ الإنسان لمقام الإمامة الإلهية، ويمكن اجمالها ضمن مجموعتين، الأولى: الشروط السلبية وهي الأمور التي يجب التنزه عنها، والثانية: الشروط الإيجابية وهي الامور التي يجب التحلي بها، وسنشير إليهما كالآتي:

---

(١) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص١٣٢.

(٢) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٣٠٤.

أولاً: الشروط السلبية

وهي عبارة عن القبائح التي يجب التنزه عنها، ويجمعها رذيلة الظلم، فلا بد من التنزه عن هذه الصفة السلبية لأنّها المانع الرئيسي من بلوغ الإنسان مرتبة الإمامة.

العهد لا يناله الظالم

أوضحت آية الإمامة صفة الذين لا ينالهم العهد الإلهي من ذريّة إبراهيمعليه السلام، وهذه الصفة هي (الظلم)، ومن خلال نظرة سريعة على الكتاب العزيز نجده قد وصف ذريّة إبراهيم بأوصاف عديدة، فهو يصف إبراهيمعليه السلام بأنّه من المحسنين، وذريّته بأنّ منهم المحسن والظالم؛ حيث قال تعالى: ﴿سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ... وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[1]، فذرّية إبراهيمعليه السلام منقسمة الى: الظالم والمحسن.

كما وصفهم سبحانه في موضع آخر بأنّ منهم المهتدي والفاسق؛ إذ قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَد وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2].

والفاسق هو الظالم؛ لقوله سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً

---

(١) الصافات: ١٠٩ ـ ١١٣.

(٢) الحديد: ٢٦.

غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[١].

ووصف القرآن الكريم بعض تلك الذريّة بالصالحين، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢]، فاستجيب دعاؤه بقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣].

وهكذا تجد الأوصاف الكثيرة لذريّة إبراهيم عليه السلام.

ولم تمنع آية الإمامة أحداً من نيل العهد له إلّا الظالم، قال الرازي في تفسيره: وإنْ كان المراد عهد الإمامة وجب أن لا نثبت الإمامة للظالمين، وإذا لم تثبت الإمامة للظالمين وجب أنْ لا تثبت النبوة للظالمين، لأنّ كلّ نبي لا بدّ وأنْ يكون إماماً يؤتم به ويقتدى به[٤].

وعليه، فلا بدّ لنا من الوقوف عند آيات الذكر الحكيم، لنتعرّف منها على المفهوم القرآني للظلم والظالم، ونكون من خلال ذلك أيضاً قد تعرّفنا على الذين نالوا الإمامة التي جعلها الله تعالى لخليله عليه السلام، ونالهم العهد الإلهي.

---

(١) البقرة: ٥٩.

(٢) الصافات: ١٠٠.

(٣) الصافات: ١١٢.

(٤) تفسير الرازي، ج٣، ص١٠.

أ ـ مفهوم الظلم

الظلم من المفاهيم المتداولة بين الناس في حياتهم اليومية وفي جميع المجالات، فكلّ اعتداء على الآخرين وكلّ تجاوز على حقوق الناس يكون ظلماً، ويسمّى المعتدي والمتجاوز ظالماً. ولم يقفوا في ذلك عند حقوق الناس وظلمهم، بل اعتبروا مخالفة الإنسان للقوانين العامّة التي تضمن له سعادته، كالقوانين الصحّية والاجتماعية والحكوميّة وأشباهها من الظلم للنفس أيضاً.

فالظلم حقيقة يفهمها ويدركها كلّ إنسان ولا يرضاها لنفسه ولا لغيره من أبناء جنسه، بل حتّى للبهائم والحيوانات، ولم يكن القرآن الكريم ليأتي بمعنى جديد أو اصطلاح خاصّ في الظلم، واستقراء الآيات الكريمة يُظهر أنّها لم تستعمل الظلم إلّا في المعنى المألوف عند الناس والذي يعرفه كلّ أحد، فكما أنّ الخروج عن طاعة قانون السلطة الحاكمة يعتبر ظلماً للنفس، كذلك فإنّ الخروج عن طاعة القانون الإلهي ظلم لها.

وكما أنّ للظلم مراتب متفاوتة عند الناس، فهو في القرآن الكريم له مراتب متفاوتة أيضاً، ولذا كان من عظيم الظلم الشرك بالله سبحانه. قال تعالى مشيراً إلى وصيّة لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

---

(١) لقمان: ١٣.

ولهذا نجد القرآن الكريم قد دأب على تسمية المشركين والكافرين بالظالمين، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢)، وقال عزّ اسمه: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(٣)، وهكذا كثير من الآيات المباركة التي تسمّي المشرك والكافر ظالماً.

ومن وصيّة لقمان والتعبير فيها عن الشرك بالله تعالى بأنّه ﴿ظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، نعرف أنّ للظلم مراتب عديدة أعظمها الشرك ـ ولكن لا يختصّ الظلم به ـ كما ورد التعبير القرآني عن كثير من المعاصي بالظلم، كالافتراء على تعالى بالكذب في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾(٤)، والادّعاء الكاذب في قوله سبحانه: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ... إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٥)، وقتل النفس المحترمة بغير الحقّ ضمن قصّة ابنَي آدم في قوله سبحانه: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزَاءُ

---

(١) البقرة: ٥٤.

(٢) البقرة: ٢٥٤.

(٣) المائدة: ٧٢.

(٤) الانعام: ٩٣.

(٥) هود: ٣١.

الظَّالِمِينَ﴾[١]، والزنا ضمن قصّة يوسف في قوله سبحانه: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[٢]، والحكم بغير ما أنزل الله في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٣]، وكتمان الشهادة في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾[٤]، والاعتداء على الآخرين في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ... وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[٥].

فهذه الآيات الكريمة وغيرها تؤكّدعلى أنّ الظلم لا يختصّ بالشرك بالله تعالى وإنّما كلّ المعاصي هي من الظلم إمّا للعباد وإمّا للنفس، وإنّما صارت معصية الله تعالى ظلماً لأنّ ظلم النفس هو الخروج عن القانون الذي يضمن السعادة والسلامة لها، وأيّ قانون هو أكثر ضماناً لسعادة الإنسان من القوانين الإلهية؟! وأيّ سلطة أحقّ بالاتّباع من الله تعالى؟! فمن البديهي أن يكون الخروج عنها ظلماً للنفس، وجحودها خروجاً عن الطاعة.

وعليه، فالظلم لا يختصّ بالشرك، بل هو ذو مراتب متعدّدة

(١) المائدة: ٢٩.

(٢) يوسف: ٢٣.

(٣) المائدة: ٤٥.

(٤) البقرة: ١٤٠.

(٥) البقرة: ٢٣١.

كما أشرنا، ومن ثمّ فقد تتفاوت نسبه بتفاوت ما يتعلّق به، فكلّما تعلّق بعظيم اشتدّ أكثر، حتّى يكون الشرك بالله تعالى أعظم مراتب الظلم، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[1].

ب ـ الشرك ظلم عظيم

قال تعالى: ﴿**لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[2]؛ إنّ عظمة كل عمل تكون بعظمة أثره، وعظمة المعصية تكون بعظمة المعصي، فإنّ مؤاخذة العظيم عظيمة، فأعظم المعاصي معصية الله تعالى؛ لعظمته وكبريائه، فهما فوق كل عظمة وكبرياء، لأنّ الله تعالى لا شريك له، وأعظم معاصيه معصيته في أنّه الله تعالى لا شريك له، واطلاق عظمته في قوله: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ من غير تقييد بقياسه إلى سائر المعاصي، يدل على أنّ له من العظمة ما لا يقدر بقدر[3].

وقد أُشير إلى هذا المعنى في الأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، فعن حماد، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾، قال: «**فوعظ لقمان لابنه بآثار حتى تفطر وانشق وكان فيما**

(١) لقمان: ١٣.

(٢) لقمان: ١٣.

(٣) تفسير الميزان، ج١٦، ص٢١٥.

وعظه به... يا بني خف الله خوفاً لو أتيت القيامة ببرِّ الثقلين خفت أنْ يعذبك، وارج الله رجاءً لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أنْ يغفر لك، فقال له ابنه: يا أبت وكيف أطيق هذا وإنّما لي قلب واحد؟ فقال له لقمان: يا بني لو استخرج قلب المؤمن فشق لوجد فيه نورين، نوراً للخوف ونوراً للرجاء، لو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرةٍ، فمن يؤمن بالله يصدّق ما قال الله ومن يصدّق ما قال الله يفعل ما أمر الله، ومن لم يفعل ما أمر الله لم يصدّق ما قال الله، فإنّ هذه الأخلاق تشهد بعضها لبعض؛ فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً، ومن عمل لله خالصاً ناصحاً فقد آمن بالله صادقاً، ومن أطاع الله خافه ومن خافه فقد أحبّه ومن أحبّه اتّبع أمره ومن اتّبع أمره استوجب جنته ومرضاته، ومن لم يتّبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه نعوذ بالله من سخط الله»[(١)].

ج ـ المعصية مرتبة من الشرك

إنّ جميع المعاصي تعود إلى الشرك؛ لأنّه إشراك غير الله سبحانه في ما هو له، سواء في الطاعة والمتابعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[(٢)]، وقال عزّ

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم، ج٢، صص١٦٣ ـ ١٦٥.

(٢) يس: ٦٠.

اسمه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(١)، أم في الفعل والتدبير، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

فالشرك لا ينحصر بعبادة الأوثان مثلاً، بل إنّ طاعة كلّ أحد واتّباعه اتّباعاً غير مرضيّ لله سبحانه هو من الشرك، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾(٣)، وغير خفيٍّ أنّ اليهود والنصارى لم يعبدوا أحبارهم ورهبانهم، إلّا أنّهم أطاعوهم واتّبعوهم في ما لا يُرضي الله تعالى.

ولولا إغراءات الشيطان وهوى النفس والجهل وأمثالها، لما أقدم الإنسان على معصية ربّه في ما أمره به أو نهاه عنه، ولما أطاع الشيطان في ما زيّنه وسوّله له، والطاعة عبادة كما تقدّم.

ومن ثمّ فالمعصية مرتبةٌ من مراتب الشرك، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(٤)، فإنّ حقيقة الإيمان بالله هي تعلّق القلب به بالخضوع التامّ، وحقيقة الشرك تعلّقه بغيره تعالى ممّن لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، وحيث كان لكلّ واحد من الإيمان والشرك مراتب

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) الاعراف: ١٨٩.

(٣) التوبة: ٣١.

(٤) يوسف: ١٠٦.

متفاوتة فقد اجتمعا معاً عند كثير من الناس، فترى بعضهم يخالف فعلُه معتقداته، وهذا ما صرّح به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[1].

نعم، بعض مراتب الشرك واضحة جليّة، وبعضها ليست كذلك وهو المسمّى بالشرك الخفيّ، كما جاء ذلك في الأحاديث المروية عن أئمة اهل البيت عليهم السلام، فعن أبي هاشم الجعفري، قال: **سمعت أبا محمد عليه السلام يقول: «من الذنوب التي لا تغفر قول الرجل: ليتني لا أؤاخذ إلا بهذا»، فقلت في نفسي: إنّ هذا لهو الدقيق، ينبغي للرجل أن يتفقّد من أمره ومن نفسه كل شيء، فأقبل عليّ أبو محمد عليه السلام، فقال: «يا أبا هاشم صدقت، فالزم ما حدّثت به نفسك، فإنّ الاشراك في الناس أخفى من دبيب الذرّ على الصفا في الليلة الظلماء ومن دبيب الذرّ على المسح الأسود»**[2].

وعن ضريس، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، قال: «**شرك طاعةٍ وليس شرك عبادةٍ**»[3]

ورواه المجلسي في البحار عن تفسير علي بن ابراهيم، وفيه: «**والمعاصي التي يرتكبون فهي شرك طاعة، أطاعوا فيها الشيطان،**

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) الغيبة، الشيخ الطوسي، ص٢٠٧، ح١٧٦.

(٣) الكافي، ج٢، ص٣٩٧، ح٤، باب الشرك.

فأشركوا بالله في الطاعة لغيره، وليس باشراك عبادةٍ أن يعبدوا غير الله»[١].

وعن علي بن سالم، قال: **سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «قال الله عزّ وجلّ: أنا خير شريكٍ، من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلا ما كان لي خالصا»**[٢].

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾**[٣]، قال: **«أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم ما أجابوهم ولكن أحلّوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلالاً، فعبدوهم من حيث لا يشعرون»**[٤].

وهكذا هناك الكثير من نصوص أهل البيت عليهم السلام تجعل كلّ معصيةٍ عبادةً للشيطان، وهي مرتبة من مراتب الشرك بالله العظيم.

وهكذا نخلص إلى أنّ كلّ معصيةٍ وكلّ خروج عن طاعة الله وكلّ متابعة للهوى في ما لا يُرضيه تعالى هي ظلم للنفس لأنّها مرتبة من مراتب الشرك، وهو ظلم عظيم، وبهذا نكون قد عرّفنا (الظالم) الذي لاينالـه عهد الله سبحانه بأنّه الخارج عن عزّ

---

(١) بحار الانوار، ج٦٩، ص٩٤، ح٥، أبواب الكفر ومساوئ الاخلاق، باب الكفر ولوازمه وآثاره وأنواعه وأصناف الشرك.

(٢) الكافي، ج٢، ص٢٩٥، ح٩، باب الرياء.

(٣) التوبة: ٣١.

(٤) الكافي، ج١، ص٥٣، ح١، باب التقليد.

الطاعة إلى ذلّ المعصية، وقد قال تعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا المعنى هو الذي فهمه المفسّرون أيضاً، إذ قال الزمخشري في الكشاف: أي من كان ظالماً من ذريّتك لا يناله استخلافي وعهدي إليه بالإمامة، وإنّما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظلم، وقالوا: في هذا دليل على أنّ الفاسق لا يصلح للإمامة... وكان أبو حنيفة (رحمه الله) يفتي سرّاً بوجوب نصرة زيد بن عليّ (رضوان الله عليهما)، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللصّ المتغلّب المتسمّى بالإمام والخليفة، كالدوانيقي وأشباهه، وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمّد ابني عبد الله بن الحسن حتّى قُتل! فقال ليتني مكان ابنك، وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عدّ آجره لما فعلت، وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماماً قطّ، وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنّما هو لكفّ الظلمة؟! فإذا نُصّب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذئب ظلم(١).

وكأنّه بهذا يشير إلى ما أشار إليه الطباطبائي في (الميزان)، حيث قال: «ثمّ إنّ هذا المعنى ـ أعني الإمامة ـ على شرافته وعظمته لايقوم إلّا بمن كان سعيد الذات بنفسه، إذ الذي ربّما تلبّس بالظلم والشقاء فإنّما سعادته بهداية من غيره، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي

---

(١) الكشاف، ج١، ص١٨٤.

إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾[١]، وقد قوبل في الآية بين الهادي إلى الحقّ وبين غير المهتدي إلاّ بغيره ـ أعني المهتدي بغيره ـ وهذه المقابلة تقتضي أن يكون الهادي إلى الحقّ مهتدياً بنفسه، وأنّ المهتدي بغيره لا يكون هادياً إلى الحقّ البتة[٢].

وقال الفخر الرازي عند تفسيره الآية المباركة: المسألة السادسة: الآية تدلّ على عصمة الأنبياء من وجهين، الأوّل: أنّه قد ثبت أنّ المراد من هذا العهد (الإمامة)، ولا شكّ أنّ كلّ نبيّ إمام، فإنّ الإمام هو الذي يؤتمّ به، والنبيّ أولى الناس، وإذا دلّت الآية على أنّ الإمام لا يكون فاسقاً، فبأن تدلّ على أنّ الرسول لا يجوز أن يكون فاسقاً وفاعلاً للذنب والمعصية أولى، الثاني: قال: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فهذا العهد إن كان هو النبوّة، وجب أن تكون لا ينالها أحد من الظالمين، وإن كان هو الإمامة، فكذلك لأنّ كلّ نبيّ لا بدّ وأن يكون إماماً يؤتمّ به، وكلّ فاسق ظالم لنفسه، فوجب ألّا تحصل النبوّة لأحد من الفاسقين، والله أعلم[٣].

وقال في موضع آخر: على أنّا بيّنّا أنّ المراد من الإمامة في هذه الآية (النبوّة)، فمن كفر بالله طرفة عين فإنّه لا يصلح للنبوّة[٤].

وقال في موضع ثالث: فإن قيل: ظاهر الآية يقتضي انتفاء

---

(١) يونس: ٣٥.

(٢) تفسير الميزان، ج١، ص٢٧٣.

(٣) تفسير الرازي، ج٤، ص٤٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٦.

كونهم ظالمين ظاهراً وباطناً، ولا يصحّ ذلك في الأئمّة والقضاة، قلنا: أمّا الشيعة فيستدلّون بهذه الآية على صحّة قولهم في وجوب العصمة ظاهراً وباطناً، وأمّا نحن فنقول: مقتضى الآية ذلك، إلاّ أنّا تركنا اعتبار الباطن فتبقى العدالة الظاهرة معتبرة[١].

لكن لماذا ترك الرازي ما دلّت عليه هذه الآية من اعتبار العدالة ظاهراً وباطناً مع اقراره بدلالتها على ذلك، واكتفى بالعدالة الظاهرية؟!

فاتضح أنّ الظالم ـ وهو المرتكب لأيّ معصية من معاصي الله تعالى ـ لا يصلح لعهد الله تعالى.

ثانياً: الشروط الايجابية

تقدمت الإشارة إلى الصفة السلبية التي ينبغي للإنسان التنزه عنها لبلوغه مرتبة الإمامة، وهي الظلم فهو المانع الرئيسي ـ من بلوغه هذا المقام، وينبغي هنا بحث الصفة الإيجابية لها، أعني الصفات التي يلزم أن يتحلّى بها الفرد عند بلوغه تلك المرتبة، وهي مرتبة نيل عهد الله سبحانه وتعالى، كما تحلّى بها نبيّ الله وخليله إبراهيم عليه السلام.

صريح آية الإمامة أنّ جَعْل إبراهيم عليه السلام إماماً لم يكن إلّا بعد إتمامه الكلمات التي ابتُلي بها، وعليه فلا بدّ لكلّ مَن يُراد له أن

---

(١) تفسير الرازي، ج٤، ص٤٧.

يكـون إمامـاً للنـاس مـن قطـع الشـوط الـذي قطعـه سـيّدنا إبراهيمعليه السلام حتّى بلغ تلك المرتبة، وكـذلك إتمـام الكلـمات كـما أتمّها إبراهيمعليه السلام .

لكن تلك الكلمات لم توضّحها الآية الشريفة نفسها ليتسنّى لنا ملاحظتها في الآخرين عند الحكم لهم بتسلّم منصب الإمامة، إلا أنّه يمكن فهم هذه الحقيقة من قوله تعـالى: ﴿**وَجَعَلْنَـا مِـنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَـا يُوقِنُـونَ**﴾(١)، فقـد بيّنت هذه الآية الشريفة أنّ الإمامـة لا بـدّ فيهـا مـن عنصـرين مرتبطين ببعدين في شخصيّة الإنسان، أحـدهما: البعـد العمـلي، وهو الصبر، والآخر: البعد العلمي، وهو اليقين؛ فينبغي للإمـام أن يكـون مـزوّداً بهـذين العـاملين، فهـو عـلى مستوى العمـل متوشّح بـ (الصبر)، وعلى مسـتوى العلـم متحـلّ بــ (اليقـين)، وفيما يلي نشير إلى هذين العنصرين:

١ ـ الصبر

أمّا الصبر فقد اعتبره القرآن من صفات الأنبياءعليهم السلام، حيـث وصف ذريّة إبراهيمعليه السلام بأنّ منهم المهتدي، فقال عزّ مـن قائـل: ﴿**فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ**﴾(٢)، ووصف الصابرين بالمهتـدين في قولـه تعـالى:

---

(١) السجدة: ٢٤.

(٢) الحديد: ٢٦.

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(١)، وقال عن تلك الذريّة أيضاً: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾(٢)، ثمّ وصف الصابرين بالمحسنين في أكثر من موقع، قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣)، وقال عزّ من قائل: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٥).

وقد ندب القرآن الكريم إلى الصبر في موارد كثيرة، ومدح الصابرين، وأجزل لهم المثوبة، فقد قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾(٦)، وقال يحكي حال أيّوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٧)، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٨)، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة المادحة للصبر والصابرين.

---

(١) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧.
(٢) الصافات: ١١٣.
(٣) آل عمران: ١٣٤.
(٤) هود: ١١٥.
(٥) يوسف: ٩٠.
(٦) الاحقاف: ٣٥.
(٧) ص: ٤٤.
(٨) البقرة: ١٥٣.

كما نجد أهمّية الصبر بوضوح في نصوص الأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، فعن سليمان الجعفري، عن أبي الحسن الرضا، عن أبيه عليه السلام، قال: «**رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قوم في بعض غزواته، فقال: من القوم؟، فقالوا: مؤمنون يا رسول الله، قال: وما بلغ من إيمانكم؟، قالوا: الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بالقضاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: حلماء، علماء، كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياء، إن كنتم كما تصفون فلا تبنوا ما لا تسكنون ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون**»[(١)].

وعن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الإيمان، فقال: إنّ الله عزّ وجلّ جعل الايمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد، فالصبر من ذلك على أربع شعب: على الشوق والإشفاق والزهد والترقّب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن راقب الموت سارع إلى الخيرات...**»[(٢)]، إلى غير ذلك من الروايات الطاهرة الواردة في الباب.

من هنا اعتبر علماء الأخلاق الصبر أساساً لجميع الفضائل النفسانية، وأصلاً لجميع مكارم الأخلاق، وسيتّضح من خلال

---

(١) الكافي، ج٢، ص٤٨، ح٤، باب خصال المؤمن.

(٢) المصدر نفسه، صص٥٠ و ٥١، باب صفة الإيمان.

البحث أنّ الصبر وريث اليقين، بل اليقين يورث ما هو أعلا من الصبر بمراتب، وهو الرضا والتسليم لله سبحانه وتعالى، إذ قال تعالى واصفاً خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[١].

٢ ـ اليقين

أمّا اليقين فهو العلم الذي لا يداخله شكّ وريب، ويبدو من الآيات الكريمة أنّ هذا اليقين لا يحصل إلّا بمشاهدة العوالم الأُخرى غير المادّية، حيث قال تعالى: ﴿**وَكَذلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[٢].

أ ـ أسباب اليقين

إنّما يحصل اليقين في النفس الإنسانية لأحد سببين، فقد يحصل بسبب وجود مقدّمات منطقية وبراهين علمية وعقلية عند الإنسان، وقد يحصل بمشاهدة الحقيقة ذاتها وبحضورها بنفسها عنده.

لذا تحصل الغفلة عن المتيقّن بمجرّد الغفلة عن المقدّمات والبراهين في الحالة الأولى، بخلاف ما لو كانت الحقيقة حاضرة بنفسها عنده، فلا يمكن تصوّر الغفلة عن ذلك المتيقّن.

---

(١) البقرة: ١٣١.

(٢) الانعام: ٧٥.

ومن الواضح أنّ اليقين الذي يحصل بسبب الرؤية القلبية للملكوت هو من الحالة الثانية لليقين، وليس هو اليقين الحاصل من الفكر والبرهان والاستدلال العقلي، وإلى هذه الجهة يشير قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[(١)]، فالظاهر أنّ المراد رؤيتها قبل يوم القيامة رؤية البصيرة، وهي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين كما يشير إليه قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[(٢)]، وهذه الرؤية القلبية قبل يوم القيامة غير محقّقة للغافلين، بل ممتنعة في حقّهم لامتناع اليقين عليهم[(٣)].

ومن البديهي أنّ هذا اليقين إذا كان حاصلاً بسبب المقدّمات المنطقية فإنّه لا يوجب رؤية الجحيم رؤية حقيقية تسبّب الامتناع عن معصية الله تعالى، إذ غاية ما يستوحيه الإنسان من تلك المقدّمات هو العلم بوجود الجحيم. وشتّان بين مَن يعلم بوجود شيء، وبين مَن يرى ذلك الشيء ويشاهده؛ فإنّ الإنسان يغفل عن الجحيم ووجوده، بمجرّد الغفلة عن المقدّمات التي صاغها البرهان العقلي، فيرتكب بعض المحرّمات.

---

(١) التكاثر: ٥و ٦.

(٢) الانعام: ٧٥.

(٣) تفسير الميزان، ج٢٠، ص٣٥٢.

إذن، اليقين الذي يتأتّى عن طريق رؤية الجحيم رؤية واقعية حقيقية ليس كاليقين الثابت بالبرهان والدليل، بل هو نوع آخر منه، وهو الذي يحصل عند حضور الحقائق بنفسها عند الإنسان، فلا عجب أن لا يُقدِم الموقن هنا على مخالفة الأوامر الإلهية، لأنّه يرى النار والجحيم أمامه عياناً؛ ولذا نجد أنّ المنكر للبعث وللوازمه الحتمية من السعادة والشقاء موقنٌ بذلك اليوم ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[1]؛ لحضور الحقيقة بنفسها عنده حضوراً واقعياً حقيقياً، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[2].

وهذا النوع من اليقين ـ الحاصل من حضور الحقائق نفسها ـ هو العاصم من الذنوب والمعاصي، بل من الخطأ والسهو والغفلة والنسيان أيضاً، وهو الذي يورث الإنسان قوّة العصمة، على ما يأتي من توضيح.

وقد أكّدت نصوص أهل البيت عليهم السلام على أنّ اليقين في المصطلح القرآني والروائي هو غير اليقين الحاصل من البرهان والدليل العقلي الذي هو من مصطلحات الفلسفة والمنطق الأرسطي، فعن الوشاء، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: «**الإيمان فوق**

(١) الطارق: ٩.

(٢) السجدة: ١٢.

الاسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قسم في الناس شيء أقلّ من اليقين»[١].

وعن يونس، قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الإيمان والاسلام؟ فقال: «**قال أبو جعفر عليه السلام: إنّما هو الإسلام، والإيمان فوقه بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسم بين الناس شيء أقلّ من اليقين**»، قال: قلت فأيّ شيء اليقين؟ قال: «**التوكل على الله، والتسليم لله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله**»، قلت: فما تفسير ذلك؟ قال: «**هكذا قال أبو جعفر عليه السلام**»[٢].

ويبدو واضحاً أنّ هذا النوع من اليقين ليس من الأمور التي يتمكّن كلّ أحد من وعيها وإدراكها، فلم يشأ الإمام الرضا عليه السلام تفسير اليقين أكثر من ذلك، حتّى لمثل (يونس) الذي هو من أجلاّء أصحابه عليه السلام، بل تركه على غموضه وإبهامه، وما ذلك إلّا لصعوبة استيعابه فيما لو أوضحه وفسّره؛ لأنّه نوع آخر من اليقين غير حاصل من مجموع مقدّمات برهانية.

والحاصل أنّ اليقين الذي هو شرط من شروط الإمامة لا يحصل إلّا برؤية الملكوت، والملكوت هو الوجه الآخر للأشياء.

---

(١) الكافي،ج٢، ص٥١،ح٢،باب فضل الايمان على الاسلام واليقين على الايمان.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٢، ح٥.

ب ـ رؤية الملكوت

اتضح من خلال ما تقدم أنّ يقين سيّدنا إبراهيمعليه السلام عند مشاهدته ملكوت السماوات والأرض، لم يكن معتمداً على البرهان والمنطق النظري، بل حصل له من مشاهدة الحقائق الملكوتية نفسها، و نذكر فيها يلي بعض الأمور، الأوّل: في معنى الملكوت، والثاني: في أنّ رؤية الملكوت تورث اليقين، والثالث: في موانع رؤية الملكوت.

الأوّل: معنى الملكوت

الملكوت في الأصل من الملك، كالرهبوت من الرهبة، يقال: له ملكوت العراق وملكوة العراق أيضاً، مثال الترقوة: وهو الملك والعزّ[1]. وهو مصدر زيدت فيه الواو والتاء، مثل الطاغوت والجبروت، وهذه الزيادة فيه توجب تأكيداً في معناه، أو كما يقولون: زيادة مبنى تفيد زيادة معنى[2].

وقد استُعمِل في القرآن الكريم بنفس المعنى اللغوي من غير تفاوت كسائر الألفاظ القرآنية، فلم يكن القرآن الكريم ليبتدع معاني خاصّة للألفاظ التي يستعملها.

نعم، غاية الاختلاف بينهما هو في المصاديق المنطبقة على

(١) الصحاح، الجوهري، ج٤، ص١٥١٠، مادة (ملك).

(٢) المصدر نفسه، وانظر: ج٥، ص١٩٣٨، ضمن مادة (رنم).

تلكم المعاني التي استعملت الألفاظ فيها، فإنّ الملك والملكوت هما سلطنة واختصاص بالأشياء يوجبان إمكانية التصرّف فيها وصحّته.

والملك تارة يكون اعتبارياً، كمُلك الإنسان لما تحت يده من مال وعقار وغيرهما، وهذه الملكية قابلة للنقل والانتقال والهبة والتفويض، بل إمكانية غصبها من مالكها الشرعي أيضاً.

وتارة يكون حقيقياً، وهو عين الملك بالمعنى السابق، لكن يختلف عنه بعدم إمكانية نقله من مالكه إلى آخر، ولا تفويض لغيره فيه، ومن هنا كان حقيقياً، ويختلف عن سابقه بالمصداق فقط.

ومثاله الواضح ملك الإنسان لقواه وأفعاله، فكلّ واحد منّا يملك نفسه، بمعنى أنّه هو الحاكم المسلّط المتصرّف في سمعه وبصره وسائر قواه وأفعاله؛ فسمعه وبصره إنّما يعملان بإرادة منه وتبعاً لحكمه وسلطانه عليهما، ولا بتبع إرادة غيره من الناس.

وهذا النحو من الملك يجده كلّ إنسان في نفسه، ولا يشكّ فيه أحد، وهو ملك لا يقبل الانتقال ولا الهبة ولا الغصب ولا تفويض الآخرين فيه، فالإنسان يملك قواه وأفعال نفسه، وهي جميعاً تبعات وجوده، قائمة به، غير مستقلّة ولا مستغنية عنه. فالعين إنّما تبصر بإذن من الإنسان الذي يبصر بها، وكذا الأذن إنّما تسمع بإذن منه، ولولا الإنسان لم يكن ثمّة سمع ولا استماع ولا بصر ولا إبصار.

ولا شكّ في أنّ هذا المعنى من الملك يمكن أن ينسب الى الله سبحانه، وهو ذلك الملك الحقيقي التكويني، لأنّه تعالى هو المالك الحقيقي لكلّ شيء وإليه يرجع تكوين الأشياء وتدبيرها، فلا غنى للمخلوق عن الخالق عزّ اسمه، لا في نفسه ولا في توابعه من قوى وأفعال، ولا استقلال له لا منفرداً ولا مجتمعاً مع سائر أجزاء الكون المرتبطة والممتزج بعضها ببعض امتزاجاً يكوِّن هذا النظام العام المشاهد[1].

من هنا يتّضح الجمع بين ما يثبته القرآن الكريم للأشياء من نظام السببية وقانون العلّية والمعلولية، وبين ما يثبته من استناد الأمر كلّه لله تعالى، فهو يعني أنّ الأسباب غير مستقلّة في التأثير، والمؤثّر الحقيقي فيها ـ وبتمام معنى الكلمة ـ ليس إلّا الله عزّ سلطانه؛ فقد قال تعالى: ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾[2]، وقال: ﴿**لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾[3]، وقال: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[4]، وقال: ﴿**قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ**﴾[5]، وقال: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[6]، إلى غير ذلك من

---

(١) تفسير الميزان، ج٧، ص١٧٠.

(٢) الاعراف: ٥٤.

(٣) البقرة: ٢٨٤.

(٤) الحديد: ٥.

(٥) النساء: ٧٨.

(٦) الملك: ١.

الآيات الكثيرة الواضحة والدالة على أنّ كلّ شيء مملـوك محـض لله سبحانه، لا يشاركه فيـه أحـد، ولـه سـبحانه أن يـتصرّف في الأشياء كيـف يشـاء، ويملِّـك غـيره الـتصرّف فيهـا مـن غـير استقلال، بل مجرّد إذن لا يستقلّ به المـأذون دون أن يعتمـد عـلى إذن الآذن التكويني[1].

ولذا جاء قوله تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْـرٌ لِلْعَـالَمِينَ * لِمَـنْ شَـاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[2]، حيث دلّت هـذه الآيـة ونظائرهـا عـلى أنّ الأمـر الـذي يمكـن للإنسان أن يريده، وبيده زمام اختياره، لا يتحقّق موجوداً إلّا أن يشاء الله ذلك[3].

وقد أكّدت الروايات المروية عن أئمة أهل البيـتعليهم السلام هـذا المعنى، فعن عباية، عن أمير المـؤمنينعليه السلام في معنـى الاسـتطاعة: «**تملكها بالله الذي يملكها من دونك، فإن ملّككها كـان ذلـك مـن عطائه، وإن سلبكها كان ذلك من بلائه، وهـو المالـك لمـا ملّكـك، والمالك لما عليه أقدرك، أَما سمعت الناس يسـألون الحـول والقـوّة حيث يقولون: لا حول ولا قوّة إلّا بالله؟!**»[4].

وعن علي بن الحكم وعبد الله بن يزيـد، أنّ رجـلاً مـن أهـل

---

(١) تفسير الميزان، ج١، ص٧٨.
(٢) التكوير: ٢٧ ـ ٢٩.
(٣) تفسير الميزان، ج١، ص٨١.
(٤) تحف العقول، ص٢١٣.

البصرة سأل أبا عبد الله عليه السلام عن الاستطاعة؟ فقال: «**إنّ الله خلق خلقاً فجعل فيهم آلة الاستطاعة ثم لم يفوض إليهم، فهم مستطيعون للفعل وقت الفعل مع الفعل إذا فعلوا ذلك الفعل، فإذا لم يفعلوه في ملكه لم يكونوا مستطيعين أن يفعلوا فعلاً لم يفعلوه؛ لأنّ الله عزّ وجلّ أعزّ من أن يضاده في ملكه أحد**»[1]، فهذه الأحاديث وغيرها تؤكّد هذه الحقيقة، وأنّ الملك الحقيقي لله سبحانه، وأن ليس لأحد الاستقلال في الفعل والتأثير، ولا يمكن أن يتحقّق الشيء موجوداً إلّا بإذنه تعالى.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يعلّل الملك بالخلق، حيث قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2]، وهذا يعني أنّ كون الأشياء منه، وأنّ انتساب وجودها وواقعيتها إليه تعالى هو الملاك في تحقّق ملكه، وهو الملك الذي لا يشاركه فيه غيره، ولا يزول عنه إلى غيره، ولا يقبل نقلاً ولا تفويضاً يغني عنه تعالى، ولا يمكن أن ينصّب غيره مقامه. وهذا هو الذي يفسَّر به معنى الملكوت في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾[3]. هذه الآية تثبت أنّ

(١) الكافي، ج١، ص١٦١، ح٢، باب الاستطاعة.

(٢) المائدة: ١٧.

(٣) يس: ٨٢ و ٨٣.

ملكوت كلّ شيء إنّما هو قوله تعالى للشـــيء ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، وهذا القول كناية عن إفاضته تعالى الوجود على الشيء مـن غـير حاجـة إلى شيءٍ آخـر وراء ذاتـه المتعاليـة، ومـن غـير تخلّـف ولا مهلة، وليس من المعقول أن يكون هذا القول لفظاً يتلفّظ بـه ذات الحقّ لإيجـاد الأشـياء، وإلّا احتـاج ذلـك اللفـظ أيضـاً إلى إيجاد، وهذا الإيجاد محتـاج إلى الـتلفّظ بـــ (كـن) أيضـاً، وهكـذا يتسلسل لا إلى نهاية، هذا من جهة.

ومن جهة اخرى لا يُعقـل أيضـاً وجـود مخاطـب ذي سـمع لتلقّي هذا الأمر، واستماع هذا الخطاب ليوجد به، لأنّ الاسـتماع لا بدّ وأن يكون بعد الوجود لا قبله كما هو واضح.

فإذا اتّضح معنى الملك الحقيقي، يتّضح أيضـاً أنّ التفـويض ممتنعٌ عقلاً، سواء كان بمعنى أنّ الله سبحانه قد فوّض أمر العـالم إلى عباده يفعلون ما يريدون، كما يصـوّر ذلـك المفوّضـة، أو أنّـه تعـالى فـوّض أمـر هـذا الكـون تكوينـاً وتـدبيراً وتشـريعاً إلى الأئمّةعليهم السلام مثلاً، كما يفعل ذلك بعـض الملـوك إذ يعتزلـون عـن تدبير مملكتهم ويفوّضون ذلك الى أحد وزرائهـم، لأنّ ملـك الله سبحانه للأشياء غير قابل للنقل والانتقال، ويشبهه بعض الشيء ملك الإنسان لقواه وأفعاله حيث إنّها لا تقبـل النقـل والانتقـال والشركة وغيرها كـما تقـدّم، فـلا بـدّ لنـا ـ والحـال هـذه ـ مـن التصرّف في ظواهر تلك النصوص، وحملها على ما ينسـجم مـع

البرهان العقلي والدليل النقلي.

إذن، اتّضح أنّ وجود الأشياء المادّية في نشأة الطبيعة تمتلك جهةً من الوجود، وهي الجهة المادّية التي تنتسب إلينا، وهي زائلة، فانية، متغيّرة، والزمان والحركة مصاحبان لها، والمكان لا ينفكّ عنها.

وهناك جهة أُخرى للأشياء عدا هذه الجهة المادّية، وهي جهة انتسابها بالله سبحانه وتعلّقها به وقيامها به قياماً وجودياً، وفقرها إليه فقراً تامّاً، وهذه الجهة لا تتغيّر ولا تتبدّل ولا تتلبّس بالتدرّج، بل هي بجميع وجودها تابعة لله سبحانه، غير مستقلّة ولا مستغنية عنه، فهي في ملكه وبيده، يتصرّف فيها كيفما يشاء؛ قال تعالى: ﴿**وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ**﴾[2]، فما هو عنده ثابت لا يزول ولا يتغيّر عمّا هو عليه، وخزائن كلّ شيء كائناً ما كان أمور ثابتة غير زائلة ولا متغيّرة.

وهذه الجهة لا تقبل الشركة وتختصّ به تعالى وحده، فالربوبية ـ التي هي المُلك والتدبير ـ لا تقبل تفويضاً ولا تمليكاً انتقالياً، وهي الجهة الثانية للأشياء هي التي يسمّيها القرآن الكريم بـ (الملكوت).

---

(١) الحجر: ٢١.

(٢) النحل: ٩٦.

وقد أُشير لهذا المعنى في الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في شرح الملكوت؛ فعن عبد الله بن مسكان، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[(١)]، قال: «**كُشط لإبراهيم السماوات السبع حتى نظر إلى ما فوق العرش، وكُشط له الأرض حتى رأى ما في الهواء، وفُعل بمحمد صلى الله عليه وآله مثل ذلك**»[(٢)]، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة المروية في الباب.

فاتضح من خلال ذلك كله أنّ المراد بإراءة الملكوت لإبراهيم عليه السلام هو توجيهه من قبل الله تعالى لمشاهدة الأشياء من جهة استناد وجودها إليه عزّ اسمه، وبما أنّه استنادٌ لا يقبل الشركة لم يلبث دون أن حكم عليها أن ليس لشيء منها ربٌّ غيره، ولا مالك ومدبّر لها سواه سبحانه وتعالى.

ومن البديهي أنّ النظر في ملكوت الأشياء موجب لهداية الإنسان إلى التوحيد هدايةً قطعيةً يقينيةً، لا يداخلها ريبٌ ولا يشوبها شّكٌ بوجهٍ من الوجوه، وهذا هو اليقين الذي بلغه إبراهيم عليه السلام .

ولّما كان النظر في الملكوت موجباً لليقين بالله سبحانه

---

(١) الانعام: ٧٥.

(٢) بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار (ت/ ٢٩٠ هـ) ، ص١٢٧، ح٢، باب في الأئمة أنّه عرض عليهم ملكوت السماوات والأرض كما عرض على رسول الله حتى نظروا إلى ما فوق العرش.

وبجميع صفاته وأسمائه تعالى، ورد الحثّ على ذلك؛ حيث قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾[1].

الثاني: رؤية الملكوت تورث اليقين

قد يُتساءل هنا: هل هذه الرؤية لعالم الملكوت بَصَريةٌ مادّيةٌ أوشيءٌ آخر؟ والجواب أنها ليست بَصَريّةً مادّيةً، لأنّ العين المادّية لم يقدّر لها رؤية شيءٍ خارج عالم المادّة، ومن خلال ما بينّاه من معنى الملكوت وما شرحتْه النصوص اتّضح أنّ الملكوت ليس شيئاً مادّياً ليتسنّى للعين المادّية رؤيته، بل هو من العوالم الأخرى غير المادّية، وإلّا كيف نفسّر غيابه عن شخص وترائيه لآخر؟

هذا، وقد صرّح القرآن الكريم والسنّة الشريفة بوجود أعين للإنسان غير الأعين المادّية، وهذه الأعين قد تُصاب بالعمى عند أُناس كما هو حال العين المادّية، وقد تمتاز بقوّة النظر عند آخرين فتتجلّى لهم العوالم الأخرى وتشاهد ملكوت الرحمن تبارك وتعالى؛ قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2].

---

(١) الاعراف: ١٨٥.

(٢) الاعراف: ١٧٩.

فهذه الأعين والآذان التي لايسمعون ولايبصرون بها لابدّ وأن يكون المقصود بها غير المادّية، وذلك من خلال تشبيههم بالأنعام، وإلّا فالأنعام تبصر وتسمع بالأدوات التي تتمتّع بها.

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (١)، فقد صرّحت هذه الآية المباركة بوجود أعين وأبصار للقلوب يصيبها العمى وحدها مع أنّ العين المادّية مبصرة.

هذا، وكان من تعظيم القرآن الكريم للأنبياء والأولياء وعباد الله الصالحين هو وصفهم بأنّهم ذوو أبصار، إذ قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الاَيْدِي وَالاَبْصَارِ﴾ (٢)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الاَبْصَارِ﴾ (٣)، وقال عزّ وجلّ: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الاَبْصَارِ﴾ (٤).

وبأدنى تأمّل في مضامين هذه الآيات المباركة ونظائرها، يتّضح بأنّ المقصود ليس هذه الأعين المادّية، لأنّ ذوي هذه الأبصار هم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه ودلائل عظمته،

(١) الحج: ٤٦.
(٢) ص: ٤٥.
(٣) آل عمران: ١٣.
(٤) النور: ٤٤.

فلا بدّ أنّ تلك الأعين التي تقودهم إلى الاعتبار هي غير الأعين التي يتمتّع بها عامّة الناس، ومنهم المشرك الملحد بالله سبحانه، فقد قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[(١)]، والملاحظ في هذه الآية المباركة أنّها أثبتت بصراحة الرؤية للفؤاد الذي هو القلب، كما نسبت العمى إليه في ما تقدّم من الآيات.

وقال عزّ اسمه: **﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُمْ مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[(٢)]، فصرّحت الآية المباركة بأنّ الفؤاد وسيلة من وسائل المعرفة والعلم، كالسمع والبصر، ومن الواضح أنّ هذه الوسيلة إنّما تستخدم لإدراك العوالم الأخرى الخارجة عن نطاق المادّة.

وهذا ما أكّدته الأحاديث الشريفة المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في أكثر من مورد، منها المروي بألفاظ مختلفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث الإسراء، قال في حديث مطوّل يصف فيه الإسراء: «**فكان توفيقاً من ربّي عزّ وجلّ أن غمضت عيني، وكَلّ بصري وغُشي عنّي النظر، فجعلت أبصر بقلبي كما أُبصر بعيني، بل أبعد وأبلغ**»[(٣)].

---

(١) النجم: ١١.

(٢) النحل: ٧٨.

(٣) بحار الأنوار، ج١٨، ص٣٩٥.

ومنها المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً، قال: «**لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات**»(١).

ومنها المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام في جواب ذعلب اليمانيّ لمّا سأله: هل رأيت ربّك؟ فقال عليه السلام: «**أفأعبد ربّاً لم أره؟**»، **فقال: وكيف تراه؟ فقال**: «**لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان**»(٢)، إلى غير ذلك من الشواهد القرآنية والروائية الكثيرة الدالّة على أنّ الرؤية ليست مختصّة بالعين المادّية، وأنّ غاية ما تدركه العين المادّية هو المادّة فقط، أمّا العوالم غير المادّية فلها وسائل أُخرى لمشاهدتها.

الثالث: موانع رؤية الملكوت

اتّضح ممّا تقدّم أنّ الملكوت هو الوجه الآخر للكون وهو الجانب الغيبي للعالم الذي يواجه الله تبارك وتعالى مباشرة، فكلّ عالم الغيب هو من الملكوت، وهو خارج عن عالم الحسّ والمحسوسات المادّية، وأنّ رؤيته ليست رؤية بصرية وبالعين المادّية، بل هي رؤية البصيرة والفؤاد والقلب، وهذا النوع من الرؤية وإنْ اختلف عن الرؤية المتحقّقة بالعين المادّية من جهة،

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٩، ص١٦٣.

(٢) نهج البلاغة، ص٣٨٣.

إلّا أنّه يتّفق معها من جهة أُخرى، وهي أنّه كما يجب في تحقّق الرؤية البصرية توفّر شروطها، من صحّة العين وسلامتها وقابليتها على الإبصار، مضافاً إلى عدم وجود الموانع الخارجية والحواجز المانعة للبصر من رؤية الشيء، فكذلك رؤية البصيرة لا بدّ من توفّر تلك الشروط فيها، كوجود القابلية على الرؤية وعدم وجود الموانع منها.

لكن ينبغي التنبيه على الفرق الأساسيّ بين الرؤيتين، وهو أنّ شروط الرؤية المادّية ومقوّماتها وكذلك حواجزها هي الأخرى مادّية، أمّا الرؤية غير المادّية فشروطها ومقوّماتها غير مادّية أيضاً، وهكذا غير الرؤية من الأفعال كالسمع والنطق وغيرهما، وذلك لوجوب المجانسة والمسانخة بين الأشياء.

ومن هنا نجد القرآن الكريم يجعل للعمى القلبي عدّة أسباب، منها:

الكفر بالله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿**مَن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ... أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[1]، فقد وصفت الآية المباركة الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم بأنّهم ﴿**الْغَافِلُونَ**﴾، ومنه يتّضح بأنّ كلّ غفلة عن الله سبحانه وآياته وأحكامه، هي من موجبات العمى القلبي.

---

(١) النحل: ١٠٦ ـ ١٠٨.

ومنها: متابعة الهوى كما في قوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾(١).

ومنها: الفساد في الأرض وقطيعة الرحم كما في قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾(٢)، حيث يُستفاد من هذه الآية المباركة أيضاً أنّ سبب العمى ليس هو قطيعة الرحم والفساد في الأرض فحسب، بل إنّ عمى الأبصار متفرّع على لعنة الله تعالى، فكلّ مَن لعنه الله تعالى فقد أعمى بصره وأصمّ سمعه. والملعونون في القرآن الكريم كثر لا يسعنا استقصاؤهم في هذه العجالة.

ومن ثمّ يتّضح أنّ الحواجز التي تمنع البصيرة من الرؤية هي المعاصي التي يقترفها الإنسان، ولا أدلّ على ذلك من قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾(٣).

هذا كلّه على مستوى المانع من الرؤية، وأمّا على مستوى المقتضي والشرط، فهو الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) محمد: ٢٢ و ٢٣.

(٣) المطففين: ١٤ و ١٥.

كَرِيمٌ * فِي كِتَاب مَكْنُون * لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

وهذه الآيات المباركة توضّح أنّ للقرآن الكريم مكانةً غير هذه المكانة المادّية التي نشهدها نحن، وهي موجودةٌ فيه قبل تنزّله على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ من خصائص هذه المكانة الحفظ والصيانة من كلّ تبديل وتغيير ونحوهما، وأنّ تنزّله حصل بعد أن كان في مكانة الصيانة والحفظ وهو (الكتاب المكنون)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٢]، فهو موجود ومحفوظ ـ قبل جعله عربياً قابلاً للقراءة ـ في أُمّ الكتاب، وإنّما جُعل ﴿بِلِسَان عَرَبِيّ مُبِين﴾ ليتمكّن الناس من تلقّيه وتعقّله.

فالقرآن الكريم كان في مرتبته الأولى وقبل تنزّله إلى العالم المادّي، عالياً رفيع المنزلة، لا تتمكّن العقول من نيله، ومحكماً متقناً لا يتطرّق إليه الفساد والتلف، غير مجزّأ إلى السور والآيات، ولا إلى الحروف والكلمات، بل كان كما قال عنه سبحانه وتعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيم خَبِير﴾[٣]، وقال عزّ اسمه: ﴿وَمَا كَانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ

---

(١) الواقعة: ٧٧ ـ ٨٠.

(٢) الزخرف: ٣ و ٤.

(٣) هود: ١.

دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَرَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١]، فالتفصيل الذي وقع في القرآن المجيد والتجزُّؤ الذي فيه، وتقسيمه إلى السور والآيات، كلّ ذلك كان بسبب نزوله إلى هذا العالم المادّي، ليستطيع الناس تعقّله وفهمه.

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[٢]، وصريح هذه الآية المباركة بأنّ القرآن الكريم موجود ومحفوظ ومصون في اللوح المحفوظ قبل تنزّله.

واللوح هو تعبير آخر عن الكتاب المكنون، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الاَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾[٣]، فـ (الكتاب المكنون) و(أُمّ الكتاب) و (اللوح المحفوظ)، كلّ هذه الأسماء تشير إلى حقيقة واحدة، وهذه الحقيقة لا ينالها ولا يمسّها إلّا المطهّرون، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾، فإنّ الظاهر منها ـ وحسب قاعدة عود الضمير على الأقرب ـ عدم إمكان مسّ الكتاب المكنون لأحد إلّا للمطهّرين من الملائكة وعباد الله الصالحين.

و (الكتاب المكنون) من الملكوت أيضاً، بل هو المحيط والجامع لجميع حقائق المُلك والملكوت؛ حيث قال تعالى:

---

(١) يونس: ٣٧.

(٢) البروج: ٢١ ـ ٢٢.

(٣) ق: ٤.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَة إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّة فِي ظُلُمَاتِ الْاَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّة فِي الْاَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَاب مُبِين﴾[٢].

وهكذا كثير من الآيات المباركة التي تعرّف (الكتاب) بأنّه المشتمل على جميع خصوصيات الحوادث والأشياء، فلا بدّ للكتاب الذي أحصي كلّ شيء، والجامع حتّى للغائبة في السماوات والأرض أن يكون قد اشتمل على الملكوت أيضاً.

ومن هنا كان (الكتاب) هدىً للمتّقين الموقنين، وذلك لتضمّنه للملكوت الذي يؤدّي إلى الهداية القطعية، وقد تقدّمَ أنّ الموقن في المصطلح القرآني هو الذي رأى ملكوت السماوات والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ذلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ... وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٣].

وعليه، فالمطهّرون هم الذين يمسّون الكتاب المكنون، وقد رأوا ملكوت الرحمن تبارك وتعالى، وحصل لهم اليقين تبعاً لذلك، كما حصل لسيّدنا إبراهيم عليه السلام عند رؤيته.

(١) الانعام: ٥٩.

(٢) يونس: ٦١.

(٣) البقرة: ٢ ـ ٤.

شبهات وردّها

أُثيرت بعض الشبهات حول عقيدة الإمامية في عصمة الإمام، نكتفي بالإشارة إلى تشنيع ابن تيمية عليهم في المورد مع ما يمكن أنْ يقال في ردّه؛ لأنّ المجال لا يسع أكثر من ذلك:

الشبهة

(العصمة من خصائص النبوة)

قال ابن تيمية بعد تشنيعه على الإمامية في قولهم بالعصمة لغير الانبياء والرسل عليهم السلام: **والعصمة منتفية عن غير الرسول**[١].

ردّ الشبهة

إن بحثنا في الإمامة الإلهية العامة دون الإمامة الإلهية الخاصة ـ إمامة أهل البيت عليهم السلام ـ فلا نريد التعرض هنا للشبهات المثارة حول إمامتهم وعصمتهم، وإنّما نريد بيان حقيقة الإمامة الإلهية على ضوء آية العهد[٢]، وظاهر كلام ابن تيمية أنّ العصمة من خصائص النبوة، ولازم ذلك أنّ المقصود بالإمامة والعهد في الآية المباركة ليس أمراً وراء النبوة بعد فرض دلالتها على العصمة.

وقد اتضح الجواب عن ذلك من خلال ما تقدم، لكن يمكن اجماله ضمن النقاط التالية:

---

(١) منهاج السنة، ج٦، ص٤٥١.

(٢) البقرة: ١٢٤.

١ـ هل الإمامة التي عهدها الحقّ تعالى لإبراهيم عليه السلام ـ كما نطقت بذلك تلك الآية الكريمة ـ هي نفس مقام النبوة والرسالة أو هي مقام آخر؟

إنّ التدبر في آية العهد(١) يفيد أنّ النبوة والإمامة هما مقامان إلهيان، إذ إنّ إبراهيم عليه السلام لم يبلغ مقام الإمامة إلّا أواخر أيّام حياته، وهذا يعني أنّ الإمامة متأخّرة عن النبوّة والرسالة وغيرهما من المقامات السامية التي بلغها خليل الرحمن عليه السلام، وأنّها مقام يختلف عن النبوّة والرسالة، ويدلّ على ذلك شواهد جمّة تقدمت الإشارة إليها.

٢ـ هل أنّ هذه الإمامة التي عهدها الحقّ تعالى لإبراهيم عليه السلام منقطعة أو مستمرة في ذريته بعد ثبوت انقطاع النبوة وختمها بالضرورة؟

إنّ الإمامة التي عهدها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام ـ مع غضّ النظر عن معناها ـ لم تتوقّف عنده، بل استمرّت في عقبه وذريّته من بعده، وهي باقية إلى يوم القيامة، وقد دلّ على ذلك أمور تقدمت الإشارة إليها.

٣ـ هل الظالم من ذرية إبراهيم عليه السلام ينال هذا العهد الإلهي (الإمامة)؟

إنّ الظالم لا ينال هذا العهد، فقد بيّنت الآية الكريمة صفة

---

(١) البقرة: ١٢٤.

الذين لا ينالهم العهد الإلهي من ذريّة إبراهيم عليه السلام، وهذه الصفة هي (الظلم)، وهذا اللفظ بحسب المفهوم يدركه كلّ إنسان، وكما أنّ للظلم مراتب متفاوتة عند الناس فكذلك هو في القرآن الكريم؛ ولذا كان من عظيم الظلم الشرك بالله سبحانه، وجميع المعاصي تعود إلى الشرك في الواقع لأنّه إشراك غير الله سبحانه في ما هو له، سواء في الطاعة والمتابعة أم في الفعل والتدبير أو غير ذلك، ومن ثمّ فالمعصية مرتبة من مراتب الشرك.

٤ـ إذا كان الظالم لا ينال عهد الله تعالى، فما هو شرط نيل العهد الإلهي (الإمامة) بعد التنزه عن الظلم؟

إنّ اتمام الكلمات هو الشرط الإيجابي الأساسي لبلوغ تلك المرتبة، فصريح آية العهد أنّ الله تعالى لم يجْعَل خليله عليه السلام إماماً إلّا بعد إتمامه الكلمات التي ابتُلي بها، ومن هنا فكلّ مَن يُراد له أن يكون إماماً من ذريته لا بدّ وأنْ يتمّ الكلمات كما أتمّها إبراهيم عليه السلام، لكن تلك الكلمات لم توضّحها الآية الشريفة نفسها، ليتسنّى لنا ملاحظتها في الآخرين عند الحكم لهم بتسلّم منصب الإمامة، إلا أنّه يمكن استيضاحها من خلال آيات كريمة أُخرى كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1]، فقد أوضحت هذه الآية الشريفة أنّ الإمامة لا بدّ فيها من عنصرين مرتبطين ببعدين في شخصيّة

(١) السجدة: ٢٤.

الإنسان، أحدهما: البعد العملي، وهو الصبر، والآخر: البعد العلمي، وهو اليقين، فينبغي للإمام أن يكون مزوّداً بهذين العاملين، فهو على مستوى العمل متوشّح بـ (الصبر)، وعلى مستوى العلم متحلّ بـ (اليقين).

٥ـ إذا كان اليقين شرط في نيل العهد الإلهي (الإمامة) فما هي أهمّ أسباب هذا اليقين اللازم أنْ يتحلى به الشخص من ذرية إبراهيمعليه السلام لينال هذا العهد؟

إنّ اليقين يحصل في النفس الإنسانية بأحد سببين:

الاول: وجود مقدّمات منطقية وبراهين علمية وعقلية عند الإنسان وما شاكل ذلك.

الثاني: مشاهدة الحقيقة ذاتها، وبحضورها بنفسها عنده، وهذا اليقين الحاصل بمشاهدة الحقيقة ذاتها اقوى من اليقين الحاصل بالمقدمات المنطقية والبراهين العلمية؛ إذ قد تحصل الغفلة عن المتيقّن بمجرّد الغفلة عن المقدّمات والبراهين بخلاف ما لو كانت الحقيقة حاضرة بنفسها عنده فلا يمكن تصوّر الغفلة عن ذلك المتيقّن، واليقين الحاصل بسبب رؤية الملكوت هو من هذا النوع من اليقين، يعني الحاصل من حضور الحقائق نفسها.

إذن، اليقين شرط في نيل ذرية إبراهيمعليه السلام العهد الإلهي (الإمامة)، كما أنّه شرطٌ للإمامة ولا يحصل إلّا برؤية الملكوت.

٦ـ إذا كانت رؤية الملكوت هي التي تُوجب اليقين الذي هو شرط في نيل ذرية إبراهيمعليه السلام العهد الإلهي (الإمامة)، فما هو هذا الملكوت؟

إنّ اليقين الذي حظي به إبراهيمعليه السلام عند مشاهدته ملكوت السماوات والأرض ليس يقيناً معتمداً على البرهان والمنطق النظري، بل هو يقين حصل له من مشاهدة الحقائق الملكوتية نفسها، فالملكوت هو الوجه الآخر للكون وهو الجانب الغيبي للعالم الذي يواجه الله تبارك وتعالى مباشرة، فكلّ عالم الغيب هو من الملكوت، وهو خارج عن عالم الحسّ والمحسوسات المادّية، وإنّ رؤيته ليست رؤية بصرية وبالعين المادّية، بل هي رؤية البصيرة والفؤاد والقلب، وهذا النوع من الرؤية وإنْ اختلف عن الرؤية المتحقّقة بالعين المادّية من جهة، إلّا أنّه يتّفق معها من جهة أُخرى، وهي أنّه كما يجب في تحقّق الرؤية البصرية توفّر شروطها، من صحّة العين وسلامتها وقابليتها على الإبصار، مضافاً إلى عدم وجود الموانع الخارجية والحواجز المانعة للبصر من رؤية الشيء، فكذلك رؤية البصيرة لا بدّ من توفّر تلك الشروط فيها، كوجود القابلية على الرؤية، وعدم وجود الموانع منها، لكن الفرق الأساسيّ بين الرؤيتين هو أنّ شروط الرؤية المادّية ومقوّماتها وكذلك حواجزها هي الأخرى مادّيةٌ، بخلاف الرؤية غير المادّية فشروطها ومقوّماتها غير مادّية أيضاً؛ وذلك

لوجوب المجانسة والمسانخة بين الأشياء، ومن هنا نجد القرآن الكريم يجعل للعمى القلبي عدّة أسباب، كالكفر بالله تعالى ومتابعة الهوى والفساد في الأرض وقطيعة الرحم، ومن ثمّ يتّضح أنّ الحواجز التي تمنع البصيرة من الرؤية هي المعاصي التي يقترفها الإنسان.

وعليه، فالمطهّرون هم الذين رأوا ملكوت الرحمن تبارك وتعالى، وحصل لهم اليقين تبعاً لذلك، فجعلهم الله تعالى أئمة كما حصل لسيّدنا إبراهيم عليه السلام، فالطهارة والجعل الإلهي هما ركنا الإمامة الإلهية.

فدلالة الآية الكريمة على العصمة قطعيةٌ كما أقرّ بذلك جماعة من مفسري السنة كالرازي وغيره، لكن غاية الخلاف في أنّ الإمامة المشار إليها في الآية الكريمة هل المراد بها نفس النبوة أو مقام آخر؟

نتائج البحث

يمكن اجمال أهم نتائج هذه الدراسة ضمن النقاط التالية:

١ـ الإمامة هي عهد إلهي لا ينال الظالم.

٢ـ الصبر واليقين شرطان أساسيان للإمام.

٣ـ اليقين لا يحصل إلّا برؤية الملكوت.

٤ـ رؤية الملكوت مشروطة بالطهارة.

المصادر

١. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسي، منشورات النعمان، النجف الأشرف، سنة الطبع: ١٣٨٥هـ.

٢. بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي، ط٢، سنة الطبع: ١٤٠٣هـ، الناشر: مؤسسة الوفاء ـ بيروت.

٣. بصائر الدرجات، أبو جعفر محمّد بن الحسن بن فروخ الصفّار، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، قم، سنة الطبع: ١٤٠٤هـ.

٤. التبيان، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٥. تفسير الفخر الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣ .

٦. تفسير القمّي، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمّي، مطبعة النجف الأشرف، سنة الطبع: ١٣٧٨هـ.

٧. الخصال، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن

بابويه القمّي (الشيخ الصدوق)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم.

٨. الغيبة، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، إيران.

٩. الكافي، ثقة الاسلام أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي المشهور بالشيخ الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط٥، سنة الطبع : ١٣٦٣ ش، الناشر : دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

١٠. الكشّاف، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، ط٣، سنة الطبع: ١٤٠٧هـ.

١١. كفاية الأثر، أبو القاسم علي بن محمّد بن علي الخزاز، مطبعة الخيام، قم، إيران، سنة الطبع: ١٤٠١هـ.

١٢. كمال الدين وتمام النعمة، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي (الشيخ الصدوق)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، سنة الطبع: ١٤٠٥هـ.

١٣. معاني الأخبار، ابن بابويه القمّي (الشيخ الصدوق)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم.

١٤. الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي،

الناشر: مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية ـ قم المشرفة

١٥. نهج البلاغة، مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أميرالمؤمنين عليه السلام، شرح: الشيخ محمّد عبده، مكتب الإعلام الإسلامي، سنة الطبع: ١٤١١ هـ.

الفهرس

كلمة المعهد ٥
أهمية البحث وضرورته........................ ١١
فوائد البحث وآثاره ١٣
العهد في اللغة والاصطلاح ١٣
عهد الله تعالى ١٤
استمرار العهد ١٧
شروط العهد........................ ٢٢
أولاً: الشروط السلبية ٢٣
العهد لا يناله الظالم........................ ٢٣
أ ـ مفهوم الظلم ٢٥
ب ـ الشرك ظلم عظيم ٢٨
ج ـ المعصية مرتبة من الشرك........................ ٢٩
ثانياً: الشروط الايجابية ٣٥
١ ـ الصبر ٣٦
٢ ـ اليقين ٣٩

أ ـ أسباب اليقين ٣٩
ب ـ رؤية الملكوت ٤٣
الأوّل: معنى الملكوت ٤٣
الثاني: رؤية الملكوت تورث اليقين ٥١
الثالث: موانع رؤية الملكوت ٥٤
شبهات وردّها ٦٠
الشبهة ٦٠
ردّ الشبهة ٦٠
نتائج البحث ٦٥
المصادر ٦٧